﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧﴾ [الدُّخان: 51 - 57]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا ذكرَ مستقرَّ الكافرين وعذابَهُم ذكرَ نُزُلَ المؤمنين ونعيمَهُم

لمّا ذكر سبحانه الوعيد، وبيَّن ما للكافرين مِن العذاب الشَّديد، وحذَّرهم بأبلغ صور التَّخويف والتَّهديد؛ ذكرَ سبحانه الوعد[1]، وما ينتظر المؤمنين مِن النَّعيم، والخير العميم، والسَّلامة مِن شتَّى صوَر الجحيم؛ ليبيِّن سبحانه الفَرْق[2] بين المآلَيْن، ولتتَّضح الصّورة في الحالَيْن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلۡبَسُونَ﴾: (لبس) تدلُّ تصريفاتُها على مُخالطَةٍ ومُداخلة[3]، اللُّبس: مصدر قولك: لبِستُ الثَّوبَ ألبَس، ولَبِسَ الثَّوبَ ولبَسهُ لُبسًا: اسْتترَ به، وألبسَهُ غيرَه، واللِّباس واللَّبوس واللِّبس والملبس ما يُلبس، وجُعِل اللِّباس لكلِّ ما يغطِّي الإنسانَ عن قبيح[4]، وتلبَّس بالأمر وبالثَّوب، ولابستُ الأمر: خالطْتُه، ولابستُ فلانًا: عرفتُ باطنه، واللَّبسُ مصدرُ قولك: لبَستُ عليه الأمرَ ألبِسُ؛ إذا خلطتهُ عليه حتَّى لا يعرف جهته، واللَّبسُ أيضًا: اختلاطُ الظَّلام،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 152، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590، والدرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 689.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 77، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 47، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 152.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبس).

(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لبس).

وأصل اللَّبس: سترُ الشَّيء، ويقال ذلك في المعاني، يقال: لبَستُ عليه أمرَه ألبِسهُ لبسًا: إذا شبَّهتَه عليهم وجعلته مشكِلًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: 42]؛ أي: لا تخلطوهُ به، ويقال: في الأمر لُبْسَة؛ أي: التباسٌ وشُبهةٌ، فيكون ليس واضحًا، ولابستُ الأمرَ: إذا زاولته، ولابستُ فلانًا: خالطته[1].

2) ﴿سُندُسٍ﴾: أصل (سندس) سندي، وهوَ منسوب إلى السِّند على غير قياس، والسُّندس: رقيقُ الدِّيباج ورفيعُه[2]، ومعنى: ﴿سُندُسٍ﴾؛ أي: الدِّيباج الرَّقيق النَّفيس، والسُّندس يُلبَس مِمّا يلي الجسد[3].

3) ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أصل (الإستبرق) استَبرَه؛ وهو معرَّب مِن الفارسيَّة[4]، والإستبرق: غليظ الدِّيباج[5]، وقوله تعالى: ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾؛ أي: ما غلُظَ وقَوِيَ مِن الدِّيباج، ويُلبَس فوق الثِّياب[6].

4) ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: (قبل) تدور اشتقاقاتُها على مواجهة الشَّيء للشَّيء[7]، وقَبْلَ: ظرفُ زمان يقتضي التَّقدُّم، ونقيضه: بَعْدَ، والقُبُل والقُبُل: نقيضُ الدُّبُر والدُّبُر؛ وهو الفرْجُ من الذَّكَر والأنثى، والقِبلة: التي يُصلَّى نحوها، وأصلها: الجهة، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ المصلِّي يُقابلها، ويقال: ما له قِبلةٌ ولا دِبرة؛ إذا لم يهتدِ لجهةِ أمرِه، وتقبَّلتُ الشَّيء وقبِلتُه قَبولًا: رضيته، والتَّقبُّل: قبولُ الشَّيء على وجهٍ يقتضي ثوابًا كالهديَّة ونحوها، ويقال: قبِلتُ الهديَّة أقبلها قَبولًا وقُبولًا[8].

وأقبل: نقيض أدْبَر[9]، وإذا ضممتَ شيئًا إلى شيء؛ قلتَ: قابلتُه به، والقابلة: اللَّيلة المقبلة، وكذلك العام القابل، وقَبَلْتُ الشَّيء ودبَرتهُ؛ إذا استقبلتهُ أو استدبرته، والمقابلة والتَّقابل: المواجهةُ والمُعارَضة؛ وهي أن يُقبِلَ بعضُهم على بعض، وإذا ضممتَ شيئًا إلى

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لبس).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سندس)، والراغب، المفردات: (سدس).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سندس).
(6) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 295، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قبل).
(9) الجوهري، الصحاح: (قبل).

شيء، فقد قابلتَه، وتقابَل القومُ: استقبَل بعضُهُم بعضًا[1]، ومعنى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أي: لا يرى بعضُهم قفا بعضٍ، فيكونونَ متواجهين يدورُ بهِم مجلِسُهم حيثُ داروا[2].

5) ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾: (وقي) تدلُّ تصريفاتُها على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره[3]، ومِنْهُ الوِقاية والوَقاية؛ وهي حفظُ الشَّيء ممّا يُؤذيه ويَضُرُّه، يقال: وقَيتُ الشَّيء أقِيه وِقاية ووَقاية ووَقاء؛ أي: صُنتُه وسَتَرْتُه عن الأذى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، والوِقاية: فرط الصِّيانة، والوِقاء والوَقاء والوِقاية والوَقاية: كلُّ ما وقَيت به الشَّيء[4]، والتَّقوى والتَّوَقِّي: جعلُ النَّفس في وقايةٍ ممّا يُخاف منه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أكـــرمَ الـلـه تـعـالى المتَّقين بألوان النَّعيم، وحفِظَهُم مِن عذاب الجحيم

بعد أن بيَّن اللَّهُ سبحانه في الآيات السّابقة عاقبةَ أهل الكفر والعصيان؛ بيَّن في هذه الآيات عاقبة أهل التَّقوى والإيمان؛ حيث أخبرَ أنَّهم في مَكانٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه مِن كُلِّ مَكروهٍ وسوءٍ؛ فهم في بساتينَ غنّاء وينابيع متدفِّقة بالماء، يلبسون مِن حريرٍ رقيقٍ ناعمٍ وآخرَ غليظٍ، متواجهين في الجنَّة، يُقابل بعضُهُم بعضًا بالوجوه، كذلك وزوَّجهم مِن نساء الجنَّة الموصوفات بشدَّة بياضِ العينِ مع قوَّة سوادها، وباتِّساعها مع حُسنِ جمالها، ويطلبون في الجنَّة كلَّ ما يشتهون مِن الفواكه آمنينَ مِن نفادِها ومضرَّتها، كما أنَّهم لا يذوقون في هذه الجنَّة الموتَ بعد الموتة الأولى الَّتي قد ذاقوها مِن قبل في الدُّنيا عند انقضاءِ آجالهم، وحَفِظَهم ربُّهم مِن عذاب النّار؛ تفضُّلًا وتكرُّمًا منه سبحانه عليهم، وذلك هو الفوز العظيم[6].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قبل).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 152.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقى).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وقى).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وقى).
(6) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 236 - 237، والقسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، التفسير المحرر: 32/ 429.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾:

بيانُ جزاء أهل التَّقوى

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئنافٌ ابتدائيٌّ، فقد انتقلَ الكلامُ مِن وصفِ عذاب الأثيم إلى وصفِ نعيم المتَّقين؛ لمناسبة التَّضادِّ، على عادة القرآن في تعقيب الوعيدِ بالوعدِ والعكس[1].

نكتة توكيد جملة: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾:

إثباتُ حصول المتَّقين على أعالي الجنان، وردُّ نكرانِ أهل العصيانِ

جاء التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ لتقوية المؤكَّد، وتمكينه في ذهن السّامع وفي قلبِه اهتمامًا بالخبر؛ حيث إنَّ هذه الآيات والتي بعدَها تعرِضُ الصّورة المقابِلَة لأهل الضَّلال والمنكر، وما يَلْقَون في جهنَّم مِن عذابٍ وهوانٍ، وفي المقابلة بين الصّورتين تتَّضحُ المعالمُ في كلٍّ منهما، ويرى كلٌّ في الصّورة المقابلةِ ما يضاعِف ما هو فيه مِن بلاءٍ أو نعيم؛ فأهلُ النّار إذ يرون أصحابَ الجنَّة، وما هم فيه مِن نعيمٍ ورضوان؛ يزدادُ بلاؤهم وتتضاعفُ محنتُهم، ويشتدُّ عذابُهم وحسرتهم، وأصحابُ الجنَّة إذ يَرَوْن أهلَ النّار، وما هُم فيه مِن محنٍ وشدائد، يعظُم نعيمُهم، ويتضاعفُ رضاؤهم، فلا يجدونَ غيرَ أنْ يُسبِّحوا بحمد ربِّهم أنْ عافاهُم مِن هذا البلاء، ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ۝٣٥﴾ [فاطر: 34 - 35][2].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وسرُّ إيثار التَّعبير بهذا الوصف دون غيره:

التَّعريف في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ للجنس؛ لصحَّة وضع (كلّ) مكانها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 213.

أثـرُ التَّـقـوى في حـصـولِ الجـزاءِ الـحـسَـنِ في الآخرة

فالمتَّقون هُم كلُّ مَن اتَّقى الشِّرك[1] والمعاصي[2]، وهم الذين يؤدّون كلَّ الواجبات، ويبتعدون عن كلِّ المحرَّمات، وقد يكونُ لهم ذنوبٌ صغائرُ تكفِّرها الصَّلوات وغيرُها، فهم يتَّقون ما يجبُ اتِّقاؤه ممّا نُهِي عنه في الشَّرع.

معنى الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾:

بـيـان مـكـانـة المتَّقين العليَّة

الأصلُ في معنى (في) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانَت أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[3]، وقد عُبِّر في قوله تعالى: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بالحرف ﴿فِي﴾ الذي هو للظَّرفيَّة المكانيَّة؛ فكأنَّ هذا المقام الأمين قد أحاطَ بهم إحاطة الظَّرف بالمظروف، وفي هذا مبالغةٌ في التَّكريم، وعظيمُ منَّةٍ مِن المولى الكريم سبحانه وبحمده، فلا يأتيهم الخوفُ مِن أيِّ مكان، بخلافِ الكافر الأثيم الذي ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [إبراهيم: 17].

نكتة تنكير ﴿مَقَامٍ﴾ ودلالةُ وصفِهِ بـ﴿أَمِينٍ﴾:

بـيـانُ عَـظَـمَـةِ ما ينالونَهُ مِن الخير العَميم

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿مَقَامٍ﴾ للتَّعظيم؛ حيث إنَّ الجنَّة دارُ إقامةٍ فيها نعيمٌ شامل؛ فلا خوف فيها مِن شيء، ولا خوف فيها على شيء، ولا يُتحوَّل عنها إلى غيرها، ولا يُشغل مَن فيها بما سواها.

ووَصْفُه بـ﴿أَمِينٍ﴾ مجازٌ عقليٌّ، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: 3]، وهو (فَعِيل) بمعنى (مفعول)؛ أي: مأمون فيه[4]، ويأمنُ صاحبُه الآفاتِ والانتقالَ عنهُ، وهو مِنَ الأمنِ الذي هو ضدُّ الخيانةِ، وقد وُصِفَ به المكانُ بطريقِ الاستعارةِ، كأنَّ المكانَ المخيفَ يخونُ صاحبَهُ لما يَلْقى فيهِ من المكارِه[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.
(2) القَنَّوجي، فتح البيان: 7/ 173.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 77.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 77، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 48، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.

والأمنُ أكبرُ شروط حُسْن المكان؛ لأنَّ السّاكن أوَّل ما يتطلَّب الأمن؛ وهو السَّلامة مِن المكاره والمخاوف، فإذا كان آمنًا في منزلِه كان مطمئنَّ البال شاعرًا بالنَّعيم الذي يناله[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة لقوله تعالى: ﴿مَقَامٍ أَمِينٍ﴾:

المُـقـام مـكـانُ الإقامة، والمَقامُ مكان القيام

قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بضمِّ الميم: ﴿مُقَامٍ﴾، وقرأ الباقون بفتحها ﴿مَقَامٍ﴾[2].

والمُقامُ بضمِّ الميم: مكان الإقامة، والمَقامُ بفتح الميم: مكانُ القيام، ويتناول المسكَنَ وما يتبعه؛ لأنَّه إذا جُعِل مِن (قامَ يقومُ) فمفتوحٌ، وإن جُعِل مِن (أقامَ يُقيم) فمضمومٌ؛ لأنَّ الفعلَ إذا جاوزَ الثَّلاثة فالموضعُ مضمومُ الميم، وجوِّز أنْ يكون المَقامُ بالفتح بمعنى: المشهَد والمجلِس، وأنْ يُراد بالمُقام - مضموم الميم - المكانُ، أو يكون مصدرًا ويُقَدَّر فيه المضاف؛ أي: في موضع إقامة، وهو مِن الخاصِّ الذي وقعَ مستعمَلًا في معنى العموم[3]، والمعنيان متآزران، فالمتَّقون في الجنَّة مكانُ قيامِهم أمينٌ، ومكانُ إقامتهم أمينٌ كذلك، فهم يَقومون في أمنٍ، ويُقيمون في أمن، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: 82]

علَّة فصلِ قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عن سابقِه:

تفصيلُ نعيمِ أهل التَّقوى

فُصِل قولهُ تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عن سابقِه؛ لِما بينَهما مِن كمال الاتِّصال؛ لأنَّه بدلٌ مِن ﴿مَقَامٍ﴾؛ وقد جيء به دلالةً على نزاهتِه واشتمالِه على طيِّبات المآكل والمشارب[4]؛ ذلك أنَّ الوصفَ بعد الوصفِ شديدُ التَّرغيب في الشَّيء[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 282، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 77، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 371، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 316.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 282، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 409، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 48.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

المتَّقون في نعيم الجنّات يتقلَّبون، وكأنَّهم بأمنها محضونون

الأصلُ في معنى ﴿فِي﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانَت أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ للظَّرفيَّة المكانيَّة.

فالجنّات: ما يحتوي على أشجارٍ وثمارٍ، وزروعٍ وقصورٍ وأنهارٍ، وكلِّ ما يُمتِّع النَّفس والحواسَّ، وجنّاتُ يوم الدِّين فيها النَّعيمُ الأبديُّ الخالد، وفيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشرٍ.

وقد دلَّ الحرفُ ﴿فِي﴾ على أنَّ هذه الجنّاتِ العظيمةَ كأنَّها تحيطُ بـ(المتَّقين) إحاطة الظَّرف بالمظروف، وأنَّهم يتنعَّمون داخلها، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: 108]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝٤٨﴾ [الحجر: 48].

نكتة تكرار حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

بيانُ سعةِ نعيمِ أهل الجنَّةِ ورغدِ عَيْشِهم

تكرَّر حرفُ الظَّرفيَّة مع البدَل في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بعد تقدُّم ذِكره

مع المبدل منه في قوله سبحانه: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾؛ للتَّأكيد على أنَّ دخولَهم الجنّاتِ الآمنةَ الرَّغيدة، وتقلُّبَهُم في الحياة السَّعيدة: كائنٌ لا محالة، وواقعٌ دون ريب[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ ودلالةُ مَجيئِها جمعًا:

وُعِد المتَّقون بالجنّات الكثيرات؛ لتتحقَّق لهُم كلُّ أنواعِ السَّعادات

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ للتَّكثير، وجاء بلفظ الجمع لتأكيدِ هذا المعنى؛ فإنَّ الجنَّة يوم الدِّين ذات أقسامٍ كثيرة جدًّا؛ كلُّ قسمٍ منها جنَّةٌ تشتملُ على الصِّفات المطلوبة في جنّاتِ النَّعيم؛

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.

على الرَّغم مِن التَّفاضُل فيما بينها بحسب استحقاقِ نُزَلائها الذين تفضَّلَ الله عليهم بأن يكونوا مِن أهلها بالإيمانِ والعملِ الصّالح[1].

نكتةُ عطفِ (عُيونٍ) على ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ودلالةُ مجيئِها جمعًا:

جمعَ اللهُ للمتَّقين أنواعَ الملذّات، وصنوفَ المشتهيات

عُطِفَ قوله تعالى: (عُيونٍ) على قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ لإفادة المُغايَرة؛ فلكلِّ واحدٍ مِن المتَّقين جنَّةٌ وعينٌ، أو لكلِّ جنّاتٌ وعيون[2].

وذِكرُ العيون بعد الجنّات فيه دلالةٌ على اكتمال أسباب النَّعيم؛ ففي الجنّات مآكل، وفي العيونِ مشاربُ، وفي وجود الماء المَعين بقاءٌ لثِمار الجنّات.

علَّة فصلِ قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ عن سابقه:

زيادةُ بيانٍ لعيشتهم الهنيَّة، ومنازلِهم البهيَّة

فُصِل قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ عن سابقه لِما بينهما مِن كمال الاتِّصال؛ ذلك أنَّه خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مِن الضَّمير في الجارِّ والمجرور[3]، أو هو استئنافٌ بيانيٌّ[4]؛ لوروده جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر؛ وهو: ماذا يلبسون؟ فجاء الجوابُ في قول اللهِ تَعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ الآيةَ.

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾:

بيانُ نعيمِ أجساد المتَّقين في الجِنان

في قوله سبحانه: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وصفُ نعيم أجسادِهم بذِكر لباسهم وهو لباس التَّرف والنَّعيم: السُّندس والاستبرق، وفيه كنايةٌ عن توفُّر أسباب نعيم الأجساد؛ لأنَّه لا يلبسُ هذا اللِّباسَ إلّا مَن استكمَل ما قبله مِن ملائمات الجسَد باطنِه وظاهرِه[5].

(1) عبد الرحمن، تفسير القرآن للميداني: 13/ 60.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 79.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 133، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 136، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 136.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 136، والدرَّة، تفسير القرآن، وإعرابه وبيانه: 8/ 690، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿يَلْبَسُونَ﴾:

يتجدَّد النَّعيم للمتَّقين، وليسوا منه بمخرَجين

عُبِّر بالفعل المُضارع في قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ﴾ للدَّلالة على الحُدوث والتَّجدُّد والاستمرار، ممّا يتجدَّد معه استمتاعُهم بهذا اللَّون مِن ألوان النَّعيم، ووقوعُه لهم مرَّةً بعد مرَّة، وفي هذا تنبيهٌ إلى عظيم إكرام الله سبحانه لعباده المتَّقين.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾:

بيانُ لِباس المتَّقين بعد بيانِ مقامِهم

الأصلُ في معنى ﴿مِن﴾ أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ﴾ لبيان الجنس، والمبيَّنُ محذوفٌ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ﴾، والتَّقدير: ثيابًا ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[2].

ومعنى ابتداء الغاية فيه بارزٌ غيرُ خافٍ؛ لأنَّه مفيدٌ أنَّ ابتداء لُبسِهم هو الثِّياب المنسوجة مِن السُّندُس والإستبرق، وابتداءُ لبسٍ هذه صفتُه لهوَ غايةٌ في الإكرام، وآية في النَّعيم!

نكتة تنكير ﴿سُندُسٍ﴾:

ألبسة المكرَمين كثيرةٌ منوَّعَة

التَّنكير في قوله تعالى: ﴿سُندُسٍ﴾ للتَّكثير والتَّنوُّع، ذلك أنَّه لمّا وصفَ سبحانه ما أعدَّ لعباده المتَّقين مِن اللِّبس في الجنَّة؛ دلَّ على الكثرة جدًّا بقوله: ﴿مِن سُندُسٍ﴾[3]، والسُّندس: ما رقَّ مِن الدِّيباج[4].

دلالة عطف (إِسْتَبْرَقٍ) على ﴿سُندُسٍ﴾:

تعديدُ صنوفِ ألبسة المتَّقينَ الفاخرةِ

عُطِفَ قوله تعالى: (إِسْتَبْرَقٍ) على قوله: ﴿سُندُسٍ﴾ لإفادة المغايرة؛ فإنَّ الإستبرق: ما غلُظَ مِن الدِّيباج[5]، والسُّندسُ: الحرير

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 317.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 47.

(4) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 282، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.

(5) الزمخشري، الكشّاف: 4/ 282، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.

الرَّقيق، أو السُّندسُ ما يلبسونه، والإستبرقُ ما يفترشونه[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى تنوُّع ألوان النَّعيم في الثِّياب وغيره، فلا يلبسون ثوبًا واحدًا، بل هو سندسٌ وإستبرقٌ وأسورةٌ وحرير، ولا يأكلون طعامًا واحدًا، بل هو لحمُ طيرٍ وفاكهةٌ كثيرةٌ وما يشتهون، ولا يشربون شرابًا واحدًا، بل هي أنهارٌ مِن ماءٍ ولبنٍ وعسل، وإنَّما هو نعيمٌ مقيمٌ، ولذَّةٌ لا نهاية لها.

دلالة التَّعبير بالحال ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾:

بيانُ حصول الاستئناس، بعد التَّنعُّم بصنوف الطَّعام والشَّراب واللِّباس

جاء التَّعبير بالحال في قوله تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ وهو جلوسهم على صفة التَّقابل، والغرضُ منه: استئناسُ بعضِهم ببَعضٍ؛ فإنَّ النَّعيم يوحِشُ إذا كان المرء فيه وحيدًا منفردًا، فإن قيل: الجلوسُ على هذا الوجه موحشٌ؛ لأنَّه يكون كلُّ واحدٍ منهم مطَّلعًا على ما يفعلهُ الآخر، وأيضًا فالذي يقلُّ ثوابُه إذا اطَّلعَ على حالِ مَن يَكثُر ثوابُه يتنغَّصُ عيشُه؛ فالجوابُ: إنَّ أحوالَ الآخرة بخلافِ أحوال الدُّنيا[2]، فهُم متقابلون بالمحبَّة لا متدابرون بالبغضة[3].

وفيه أيضًا إيجازٌ بليغٌ بديع؛ لأنَّ وصْفَ نعيمِ نفوسهِم بعضِهم مع بعضٍ في مجالسهم ومحادثاتهم بقوله سبحانه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أفادَ اجتماعَهُم وتحابَّهُم ومحاورتهُم، وأنَّ ذلك شأنهم أجمعين، فالحديثُ مع الأصحاب والأحبَّة نعيمٌ للنَّفس عظيم، فأغنى قولُه تعالى: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ عن ذِكْرِ ذلك كلِّه بذِكر ما يستلزمه، وهو صيغة ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ومادَّته على وجه الإيجاز البديع[4].

وفيه كذلك بلاغة التَّرقِّي في وصف نعيم الجنَّة؛ بدءًا بذِكْرِ نعيم

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 258.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 5/ 78، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 256، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 48.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 318.

المكان، ثمَّ اللِّباس، ثمَّ النُّفوس؛ بدأ بذكر نعيم الجنَّة؛ لأنَّه نعيمٌ متعلِّق بالمكان، ثمَّ ترقَّى مِن عموم المكان إلى خصوص الحالِّ فيه، فوصفَ نعيمَ أجسادهم بذِكْرِ لباسِهم وهو لباسُ التَّرف والنَّعيم، ثمَّ ترقَّى إلى ما هو أخصُّ مِن الأجساد فوصفَ نعيمَ نفوسِهم التي هي مِن الأجساد بمنزلة الأجساد مِن الجنَّة.

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ عن سابقه:

زيادةُ التَّقرير، تعظيمًا لحُسن المصير

فُصِل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه جملةٌ اسميَّةٌ واقعةٌ على جِهَة الاعتراضِ بين الجملتين المتعاطفتين، والمقصودُ بجملةِ الاعتراضِ: التَّقرير[1].

معنى التَّشبيه ودلالته في ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾:

التَّشبيه للتَّقريب، وإزالة التَّعجيب

في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وجهان جائزان[2]:

أحدُهما: النَّصبُ نعتًا لمصدرٍ؛ أي: نفعلُ بالمتَّقين فعلًا كذلك؛ أي: مِثْلَ ذلك الفعلِ مِن الإكرام والإنعام، أو التَّقدير: كما أدخلناهم الجنَّة، وفعلنا بهم ما تقدَّم ذكرُه؛ كذلك أكرمناهُم بأنْ زوَّجناهُم حورًا عِينًا.

والوجه الآخَر: الرَّفعُ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ؛ أي: الأمرُ كذلك، وتمَّ الكلام، ثمَّ يُستأنف: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾.

فالحاصلُ أنَّ هذه الكافَ للتَّشبيه، والمشبَّه به شيء تضمَّنه الكلام السّابق بلفظه أو معناه[3]، فلمّا كان ما ذُكِر يُبهر العقل، فلا يكاد يتصوَّره؛ قال مؤكِّدًا له: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر كما ذكرنا سواءٌ لا مرية فيه[4].

(1) الدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 691، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 136، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 136.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 630، والدرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 691.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 29.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 49.

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد في ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم﴾، وتعيين المشار إليه:

الإشارة للإعظامِ والإجـلال، وتقريبِ المثال، وتوضيحِ المقال

التَّعبير باسم الإشارة للبعيد يُفيد التَّعظيمَ وعلوَّ المكانة، فقد بلغَ المشارُ إليه في رفعة القدر شأوًا بعيدًا لا يُطاوَل.

وهو يُشير إلى المشار إليه المحذوفِ - بحسب ما تقدَّم - لأنَّه كالمذكور؛ لتقرُّرِ العِلم به، والمعنى: مَن أراد تشبيهَهُ لم يشبِّهْه بأكثر مِن أنْ يُشَبِّهَه بذاته؛ لعظيم مكانته ورفيع منزلته[1]؛ أي: كذلك شأنُهم الذي هم فيه، وأكثر مِن هذا، فقد زوَّجهم اللهُ ﷻ بحورِ عِينٍ مِن حورِ الجنَّة وعرائسها[2].

نكتة عطف ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ على سابقه:

للمتَّقين عند ربِّهم في الجنّات شتَّى ألوان النَّعيم والكرامات

قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ معطوفٌ على ما قبل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وهو الفعل ﴿يَلْبَسُونَ﴾[3]، أو معطوفٌ على فعلٍ مقدَّر، والتَّقدير: أثبْناهُم وزَوَّجناهُم[4]، ونكتةُ هذا العطف بيانُ ما للمتَّقين عند ربِّهم مِن الكرامة، وما لهُم في الجنَّة مِن صنوف النِّعمة، فيتمتَّعون تارةً بأكل ما يُشتَهى، وشُرب ما يُلتَذُّ، ولبسِ ما يزيِّن، ويَنْعَمون تارةً بمؤانسةِ الإخوان، وتارةً بملاعبة النِّسوان مِن الحور العين الحِسان[5].

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾:

كمالُ أُنْسِ المتَّقين في الجنَّة بصُحبةِ الحورِ العين

قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ هوَ كنايةٌ عن القرين؛ أي: قَرَنّا بكلِّ واحدٍ من المتَّقينَ نساءً حورًا عينًا، وفعل التَّزويجِ (زَوَّجْناهُمْ) هنا ليس مشتقًّا مِن الزَّوج الذي غلبَ إطلاقه على امرأة الرَّجُل، وعلى رَجُل المرأة؛ وذلك لأنَّ ذلك الفعلَ يتعدَّى بنفسه، يقال: زوَّجَهُ ابنته،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 29.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 204.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 139، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 136.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 13/ 133.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 395.

وتزوَّج بنتَ فلان، كما قال الله تعالى: ﴿زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]، وليس ذلك بمُرادٍ هنا؛ "إذ ليس في الجنَّة عقودُ نكاح، وإنَّما المرادُ أنَّهم مأنوسون بصُحبة حبائبَ مِن النِّساء، كما أنِسوا بصُحبة الأصحاب والأحبَّة مِن الرِّجال؛ استكمالًا لمُتعارَفِ الأُنس بين النّاس، وفي كلا الأُنسَيْن نعيمٌ نفسانيٌّ منجرٌّ للنَّفس مِن النَّعيم الجثمانيِّ، وهذا معنًى سامٍ مِن معاني الانبساط الرّوحيِّ"[1].

دلالة إسناد فعل اللِّبس للمنعَّمين ﴿يَلْبَسُونَ﴾ وفعل ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم﴾ لنون العظَمة:

بالحور الحِسان اكتمالُ سعادة الإنسان

أُسنِد فعلُ اللِّبس إلى المتَّقين فقال الله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ﴾، بينما أُسنِد فعل التَّزويج إلى الله العليِّ العظيم، فقال تباركت أسماؤه: (زّوَّجْناهُم)، وفي هذه اللَّفتة دقيقةٌ مِن دقائق بلاغة هذا النَّظم البليغ المُعجِز؛ ذلك أنَّ اللِّبس عادةً ما يكونُ مِن فعل اللّابس نفسه، خصوصًا إذا كان لغرضِ السَّتر مع الزِّينة، فلا يحسُن - والحالُ هذه - أن يتولَّى غيرُ اللّابس إلباسَهُ؛ لما في ذلك مِن الاطِّلاع على عورته.

أمّا في التَّزويج فإنَّه عادةً لا يكونُ إلّا بوليٍّ وشاهدَيْ عدلٍ وصيغة، وبدون هذا يكون سِفاحًا - عياذًا بالله - ومخادَنة، فلا بدَّ مِن توفُّر شروط النِّكاح حتَّى يحِلَّ.

غير أنَّ التَّزويجَ في الجنَّة هو بمنزلةٍ أعلى وأشرف مِن هذا، فالذي تولَّى تزويج المتَّقين بالحور العين هو الله ربُّ العالمين، فما أقدسَهُ مِن رباط! وما أشرفَهُ مِن وثاق!

فالحاصل أنَّ إسناد الفعل في قوله تعالى: (زَوَّجْناهُمْ) لنون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.

العظَمة هو تنبيهٌ على كمال الشَّرف[1]، ففيه مرتبةٌ أعلى مِن الفضل والعطاء، ومرتبةٌ أعلى في المحَبَّة والمسَرَّة والغِبطة[2].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[3].

زواجُ المتَّقين بالحور العين اقترانُ أُنْسٍ

وله في قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ﴾ دلالةٌ معنويَّةٌ بليغة؛ ذلك أنَّ العَرَب لا تقول: تزوَّج بها، وإنَّما يقولون: تزوَّجها، وعليه فإنَّ معنى: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾؛ أي: قَرَنّاهم بِهِنَّ[4].

ثمَّ إنَّ ما تدلُّ عليه الباء مِن معاني الإلصاق؛ أفاد معنى القُرب الشَّديد والصِّلة الوثيقة بين كلِّ زوجٍ وزوجه؛ حيث لا شيءَ يفصِل بينهُما.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ ودلالةُ مجيئها جمعًا:

الحورُ العين عَظُم جمالُهنَّ، وكثُرت أعدادُهنَّ

التَّنكير في قوله تعالى: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ يصحُّ أن يكون للتَّعظيم، فالحورُ العينُ قد بلغْنَ الغايةَ في الحُسن، والنِّهايةَ في النَّقاء والبياض.

ويقوِّي معنى التَّعظيم وصفُ (حورٍ) بـ﴿عِينٍ﴾، فإنَّ لفظَ (حورٍ) جمعٌ لـ: حوراءَ، والحَوَرُ هو: شدَّةُ بياض العَيْن في شدَّةِ سوادها، و﴿عِينٍ﴾: جمع عَيْناء؛ وهي الواسعةُ العَيْنَين عظيمَتُهُما[5].

ويصحُّ أن يكونَ التَّنكيرُ للتَّكثير؛ فهنَّ كثيراتٌ معجِبات، لكلِّ رجلٍ مِن أهل الجنَّة حوراءُ عَيناء، وربَّما كان للواحد منهم أكثرُ مِن واحدة، ومجيءُ الكلمة جمعًا تقويةٌ لهذا المعنى، والنِّكاتُ البلاغيَّة تتآزرُ ولا تتنافَر.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 49.

(2) محمد أبو موسى، آل حم (الشورى، الزخرف، الدُّخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 682.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 237، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 94.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 153.

بلاغة الوصف في قوله تعالى: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾:

عِـظَـمُ جـمـالِ نِساء الجنَّة

قوله تعالى: (حورٍ) جمع حَوْراء؛ وهي: شديدةُ بياض العين في شدَّة سوادها، والبيضاء التي يُرَى ساقُها مِن وراء ثيابها، ويَرى النّاظرُ وجهَهُ في كعبِها، كالمرآةِ مِن دقَّة الجلد، وبضاضة البشرة، وصفاء اللَّون، فيَحارُ الطَّرْفُ في حُسنِها وبياضِها وصفاءِ لونها، وأمّا العِينُ فجمعُ عَيْناء، وهي الواسعةُ العَيْنَين عظيمَتُهما[1].

ووصفُ الحورِ بأنَّهنَّ عِينٌ يُقرِّب إلى الخَلَد عَظَمَة الخلود في التَّنعُّم بهنَّ؛ فإنَّ هذا الوصفَ هو وصفٌ للعَيْنِ، وللعَينِ النَّصيبُ الأوفَرُ والحظُّ الأكبَرُ في الجَمال، فإذا كان نساء الجَنَّة بهذا القدْرِ مِن جمال العَين، فكيف بغيرها؟!

بلاغَةُ الإيجاز بحَذْفِ الموصوفِ في ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾:

مِـــن فـنـــونِ البلاغةِ الإيجاز، وهو مِن ضروب الإعجاز

قوله سبحانه: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ فيه إيجازٌ بالحذف؛ حيث حُذف الموصوف، واكتُفي بالوصف، فالتَّقدير: وزوَّجناهم بنساءٍ حورٍ عينٍ، أو بأزواجٍ حورٍ عينٍ؛ إذ هي صفةٌ خاصَّةٌ بالموصوف، وأيضًا لدلالة السِّياق وجملةِ ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ عليه.

عِلَّةُ فَصْلِ قولِهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ عن سابقه:

المتَّقون في الجنَّة خالدون، ومِن الحرير يلبسون، وبالحور يُزَوَّجون، ومِن كلِّ فاكهةٍ يأكلون

فُصِل قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّها حالٌ مِن الهاء في ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾؛ أي: يطلبون إحضارَها لديهم وهم آمنون لا يخافون مِن مغبَّة أكلِها[2].

وعليه يكونُ الفصل لشبهِ كمالِ الاتِّصال، فكأنَّ جملة الحال وقعت إجابةً عن سؤالٍ مقدَّرٍ بعد ذِكرِ اللِّباس مِن الحرير، والزَّواج بالحور العين، وهو: فَماذا يأكلون؟ فأُجيبَ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 154 - 155.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 630، ودرويش، إعراب القرآن: 9/ 137، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدْعُونَ﴾، وتوجيه المراد بالدُّعاء:

أُكُلُ الجنَّة دائمٌ وظلُّها، وفيها صُنوفُ النَّعيم كلُّها

التَّعبيرُ بالفعل المُضارع في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ﴾ لإفادة التَّجدُّد والاستمرار، وهذا مناسبٌ غايةَ المُناسبَةِ لمَدْلولهِ مِن وصف أكل أهل الجنَّة؛ إذ المعنى: أنَّهم يأمرون أن تُحْضَر لهم الفاكهة، فيُجابون، وذلك متجدِّد لهم، لا ينقَطِع عنهم، فهم أبدًا طاعمون، وأبدًا آمنون.

والدُّعاءُ في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ﴾ هو ضربٌ مِن الأمر أو الرَّغبة، ودليلهُ قوله: ﴿بِكُلِّ﴾ أي: يرغبون فيطلُبون إحضارَ كلِّ أنواع الفاكهة[1]، ومفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾ محذوفٌ للعِلم به؛ أي: يَدعون الخَدَم بكلِّ فاكهة[2].

معنى الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾:

بيانُ إحاطةِ النَّعيم بهم إحاطةً كليَّة

(في) حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانَتْ أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[3]، وهي هنا للظَّرفية المكانيَّة الحقيقيَّة؛ حيث إنَّ الجنّات هي محلُّ دعواتهم، وغاية أمنيّاتهم، فهم يطلبون الفاكهة وهم يتقلَّبون في نعيمِها آمنين.

نكتة تقديم شبهِ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على متعلَّق الفعل ﴿يَدْعُونَ﴾:

التَّقديمُ للاهتمام، تشريفًا لذلك المقام

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على متعلَّق الفعل ﴿يَدْعُونَ﴾؛ للاهتمام بالمقدَّم؛ فإنَّ النَّعيمَ الأعظمَ مِن دعائهم بكلِّ فاكهةٍ هو كونُ ذلك في أعظمِ موعودٍ؛ وهي جنّاتُ الخلودِ.

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾:

مهما رغِب المتَّقون وجَدوا، ومهما طَلبوا أُجِيبوا

(الباء) حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على معنى الإلصاق، حقيقيًّا كان هذا الإلصاقُ أم مجازيًّا[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 136.

(2) ابن عادل، اللُّباب: 17/ 335.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

ودخولُ الباء على ﴿يَدْعُونَ﴾ دلَّ على تضمينِ الفعل معنى (يطلبون)، أو (يرغبون)، فكأنَّ هذا الطَّلَب قد التَصَق بالرَّغبة في إحضار الفاكهة، ممّا يدلُّ على قُربِ أنواعِ الفاكهة الكثيرة مِن المتَّقين في الجنّات، كما يشهدُ لهُ قولهُ تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان: 14]، فهم يطلبون ما لذَّ وطابَ ممّا شاؤوا مِن أنواع الفاكهة الكثيرة المتنوِّعة، وأنواع الشَّراب الكثير العذب الطَّيب، وغيرهما، فمَهْما طلبوا وجَدوا، وأُحضِر كما أرادوا.

نكتة التَّعبير بالاسم الدّالِّ على التَّعميم (كُلِّ):

التَّعبيرُ بالتَّعميم لإفادة عدمِ امتناع أيِّ نوعٍ مِن النَّعيم

الاسم الدّالُ على التَّعميم في قوله تعالى: (كُلِّ) مستعملٌ في الكثرة الشَّديدة لكلِّ واحدٍ منهم، ويجوز أن تكون بمعنى الإحاطة؛ أي: بكلِّ صِنفٍ مِن أصناف الفاكهة[1]، والمعنى: لا يمتنع عليهم صِنفٌ مِن الأصناف لبُعدِ مكانٍ ولا فقدانٍ ولا غير ذلك مِن الشَّأن، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّه مع سَعَته ليس فيه شيءٌ لإقامة البِنْية، وإنَّما هو للتَّفكُّه والتَّلذُّذ[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿فَٰكِهَةٍ﴾ ودلالةُ إفرادِها:

فاكهة الجنَّة لا تنفد أبدا، وأنواعُها كثيرةٌ جدّا

أُفردَت الفاكهة في قول الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ للدَّلالة على معنى الجنس، فهي تشملُ كلَّ أنواعها ممّا يشمَله معنى التَّفكُّه، ونُكِّرت لإفادة التَّكثير، فهي عظيمةٌ في كثرتها وتوفُّرها، فلا تنفد أبدًا.

دلالة التَّعبير بالحال ﴿ءَامِنِينَ﴾:

جاء التَّعبير بالحال في قوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ لإفادة أنَّ هنا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 104، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 134، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 397.

أهـلُ الجنَّة يأمَنون مِن كلِّ مخوف؛ فلا تعبأ نفوسُهم بحَذَرٍ، ولا يعكِّرُ صَفوَهم كَدَر

أمنًا خاصًّا غير الذي في قوله: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وهو الأمنُ مِن الغوائل والآلام مِن تلك الفواكه، على خلافِ حالِ الإكثار مِن الطَّعام في الدُّنيا، وهذا كقوله تعالى في وصف خمر الجنَّة: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصّافّات: 47]، ويصحُّ أن يكون المعنى: أنَّهم آمنون مِن نفادِ الفاكهة وانقطاعها[1]، فهُم بذلك في غاية الأمنِ مِن كلِّ مخوفٍ أو محذور[2].

علَّة فصل قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ عن سابقه:

تعديدُ صُنوفِ النَّعيم والأوصاف

فُصِل قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّها حالٌ أخرى مِن الضَّمير في ﴿يَدْعُونَ﴾، أو مِن الضَّمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾، أو مِن مفعول (زَوَّجْناهُمْ)، أو حالٌ أخرى بعدَ ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أي: غير ذائقين، أو صفةٌ لـ﴿ءَامِنِينَ﴾[3]، ويجوز أن يكون مستأنفًا[4] جوابًا عن سؤال مقدَّر؛ وهو: هل بعد هذا النَّعيم العظيم سيموتون؟ فأُجيبَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾.

سرُّ العدول عن (خالدين) إلى ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

نفيُ حدوثِ أيِّ نوع مِن الآلام، وذلك مِن تمام النِّعمة وعظيمِ الإكرام

عُدِلَ عن (خالدين) إلى ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ لنفي ذوق الموت؛ إشارةً إلى نفي الألم والكدر عنهم، لا مجرَّد إثبات الحياة لهم والخلود؛ حيثُ جُعِلَ الموتُ في مُقاساة الآلام والأسباب التي يحدُث عندها الموت، كالطَّعام الذي يُكرَه ذَوقُه فضلًا عن تناوُلِه وأكله، فهم لا يموتون أبدًا، ولا يحصلُ لهم أيُّ شيءٍ ممّا يتعلَّق بالموت؛ كخوفه ومرضه ... إلخ.

وثمَّ ملمحٌ آخرُ؛ وهو مقابلةُ عذابِ الكفور الأثيم: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 67، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 49، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 590.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1149، والسَّمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 630 - 631.
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 580.

ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾، فهذا ذَوقٌ مثبَت، وذلك ذوقٌ منفِيٌّ، وفي المقابلة بينَهما يَظْهَر قدرُ الإنعام وحُسنُ الإكرام.

والمعنى: أنَّ المتَّقين في أمانٍ مِن أن يُزعجهم عن هذا النَّعيم الذي هم فيه أيُّ خاطرٍ يخطُر لهم؛ مِن انقطاع هذا النَّعيم بالموت، أو بالتَّحوُّل عنه إلى غيره، فهم في أمانٍ من الموت، فإنَّها حياة خالدة، ونعيمٌ خالد؛ لا يتحوَّلون أبدًا عن هذا النَّعيم إلى ما يُقابلُه مِن عذاب الجحيم الذي يَصْلاه أهلُ النّار، فقد وقاهم اللّهُ هذا العذاب وأنقذهم منه، فلا يتعرَّضون له أبدًا[1]، وقد ثبت في الصَّحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ في صورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ والنّارِ ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُقالُ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلودٌ فَلا مَوْت، ويا أَهْلَ النّارِ خُلودٌ فَلا مَوْت»[2].

مناسبة ذِكر الخلود في الجنّات والعيون بعد ذِكر الأمن:

تقوية معنى الأمن في جنّات النَّعيم

ذِكرُ الخلود في الجنّات والعيون بعد ذِكر الأمن بشارةٌ عظيمة بدوام النِّعمة وبقائها؛ لأنَّ الموت يقطع ما كان في الحياة مِن النَّعيم لأصحاب النَّعيم، كما كان الإعلام بأنَّ أهل الشِّرك لا يموتون نذارةً بدوام العذاب[3]، فذِكْرُ الخُلود ونفيُ ذوقِ الموت بعد ذِكرِ الأمن فيه تقويةٌ لمعنى الأمن؛ إذ هو أمنٌ دائمٌ لا ينقطع؛ فلا يزول عنهم ولا يزولون عنه، بخلاف أمن الدُّنيا ومتاعها الزّائل.

وقد يُحمَل على ذكر الخاصِّ بعد العامِّ، فإنَّ الأمن يشمل الأمن مِن ترك النَّعيم بالموت أو بالإخراج منه، فذِكرُ الخلود بعده يدلُّ على أهمِّيته وعظيم منزلته؛ فلذا خُصَّ بالذِّكر.

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 215، والمراغي، تفسير المراغي: 25/ 138.
(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (4730)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2849).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولهِ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

تمامُ النِّعمة بِبقائها ودوامِها

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ استعارة؛ حيث جُعل الموت في مقاساة الآلام والأسباب التي يحدث عندها الموت كالطَّعام الذي يُكره ذَوقُه؛ فلذلك استُعِير له الذَّوق، وهو في الحقيقة عَرَض لا يُذاق[1].

فهي استعارةٌ مكنيَّة؛ حيث شُبِّه الموتُ بالطَّعام الذي يُذاق، ثمَّ حُذِف المشبَّه به (الطَّعام)، وجيء بإحدى صفاته - وهو (الذَّوق) - على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وهذا مناسب أيضًا لتذييل الآية بنفي العذاب عنهم بقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارِع المنفيِّ ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾:

نفيُ حصولِ الاستطعام؛ فلا يحصل لهم شيء مِن الكدَرِ والآلام

جاء التَّعبير بالمضارع المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ﴾ لنفي الحصول في الزَّمن الحاضر والآتي؛ أي: لا يحصل لهم أوائِل استِطعامِه أبدًا، فكيف بما وراء ذلك[2]؟! ففي الفعل المضارِع دلالةٌ على الاستمرارِ، وهو استمرارُ النَّفْيِ لا نفيُ الاستِمرارِ.

لطيفةُ التَّعبير بالذَّوق منفيًّا بعد ذِكر الفاكهة:

إثباتُ الذَّوق المحمودِ ونفيُ الذَّوق المكروهِ

جاء التَّعبير بالذَّوق منفيًّا بعد أن أثبت لهم سبحانه ذَوْقَ ما يتفكَّهون به في الجنّات مِن أصناف المأكول والمشروب؛ حيث نفى عنهم ذَوْقَ ما يكدِّر صفوَ هذا النَّعيم مِن موْتٍ وزوال، فكان بين إثبات ذَوْقِ الفاكهة وأكلها ونفي ذَوْقِ الموتِ تناسبٌ بَديع[3].

معنى الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

ليس في الجنَّة ذَوقُ موت، ولا خوفُ فَوْت

الأصل في معنى (في) أنَّه موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّةً كانَت أو زمانيَّة، حقيقيَّةً أو مجازيَّة[4]، وهو هنا للظَّرفيَّة

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 126.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 50.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 50، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 215، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 397.

(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 226، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

المكانيَّة الحقيقيَّة؛ أي: لا يكون في هذا المكان موتٌ ولا هلاكٌ ولا ينبغي أن يكون. "وقد أفهم التَّقييد بالظَّرف أنَّ النّار يُذاق فيها الموت"[1]، غير أنَّه لا يُنال أبدًا!

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول به في ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾:

خُصَّت الجنَّة بأنواعٍ من الملذّات، وبالسَّلامة من المكدّرات

قُدِّمَت شبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على المفعول به في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ للاختصاص، فليس ثمَّ مكانٌ لا يُذاق فيه الموت إلّا الجنَّة، أمّا النّار - عياذًا بالله منها - فحالُ الكافر فيها كما قال الله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: 17] فيذوقُه ويقاسي سكراتِه ولا يناله أبدًا، فيدعو به، ولا يُجاب إليه أبدًا.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْمَوْتَ﴾:

المتَّقون في الجنّات خالدون، فلا موتَ يذوقون، ولا إخراجَ يخافون

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ للجنس؛ حيث إنَّهم لا يذوقون أيَّ نوعٍ من أنواع الموت، فيكون بعضًا من جنس الموت، وهو فردٌ واحد، وذلك أقوى في نفي الموت عن أنفسهم، كأنَّه قال: لا يذوقون فيها شيئًا من الموت يعني: أقلَّ ما يُطلَق عليه اسم الموت[2].

معنى الاستثناء ودلالتُه في ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾:

ثراء المعاني والدَّلالات بتعدُّد التَّوجيهات والتَّأويلات

للاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أوجهٌ يُتَأوَّل بها معناه[3]:

أحدها: أن يكون منقطعًا، وتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: (لكنْ)؛ أي: لكنِ الموتةُ الأولى قد ذاقوها في الدُّنيا؛ إذ كانت مكتوبةً عليهم فيها.

ثانيها: أنْ يكون متَّصلًا، وتأويله أنَّ السُّعداء عند موتِهم يَصيرون بلُطفِ الله تعالى إلى أسبابٍ من الجنَّة، فيرَوْن منازلهم منها، وتُفتَح

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 50.
(2) البروسوي، روح البيان: 8431، والهرري، حدائق الروح والرَّيحان: 26/ 397.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 44، والزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 428، ومكّي ابن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 2/ 658، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 580 - 581، والسَّمين الحلبي، الدرُّ المصون: 9/ 631، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 134.

لهم أبوابُها، فيَلْقَوْن الرَّوْح والرَّيحان، فإذا ماتوا في الدُّنيا فكأنَّهم ماتوا في الجنَّة؛ لمشاهدتهم إيّاها، واتِّصالهم بأسبابها.

ثالثُها: أن تكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (سوى)، وهذا التَّأويل صحيح مستقيم؛ ذلك أنَّ (سوى) بمعنى: مكان؛ ولهذا جعله النُّحاة ظرفَ مكان، فإذا قلت: جاءني القومُ سوى زيد، فكأنَّك قلت: جاءني القومُ مكانَ زيدٍ، ولم يجئ هو، وهذا معناه في الآية، فالمعنى: لا يذوقون في الجنَّة الموتَ مكانَ ما ذاقوه في الدُّنيا مِن الموت بعد الحياة؛ أي: لا يكون في الجنَّة موتٌ بعد الحياة مكانَ الموتِ الذي يكون في الدُّنيا بعد الحياة.

رابعُها: أنَّ إلّا بمعنى (بَعْدَ) واختارَهُ الطَّبريُّ[1]، وأباهُ الجمهور؛ لأنَّ مجيء (إلّا) بمعنى (بعد) لم يثبت.

وهذه الأوجه السّابقة صحيحة، ومؤدّاها أنَّه لا موتَ في الجنَّة ولا شيء ألبتَّة مِن مقدِّماته وسكراته، فلم يكتب الله تعالى على عباده إلّا موتةً واحدةً هي التي ذاقوها في الدُّنيا[2]، وهذا الاستثناء مِن تأكيد الشَّيء بما يُشبه ضدَّه لزيادة تحقيق انتفاء ذَوْق الموت عن أجل الجنَّة، فكأنَّه قيل: لا يذوقون الموتَ ألبتَّة، وقرينة ذلك وصفها بالأولَى[3].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ ودلالةُ وصفِها بـ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾:

التَّعريفُ في قوله تعالى ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ للعهد؛ فالمقصود: الموتة التي تذوَّقوها عند رحيلهم عن الدُّنيا وانتقالهم إلى الدّار الآخرة[4].

لا يذوق المتَّقون موتًا غير الذي في الدُّنيا ذاقوه

والموتُ والموتَة: مصدران مِن فعلٍ واحد، كالنَّفخ والنَّفخة، إلّا أنَّ الموتة أخصُّ مِن الموت؛ لأنَّ الموتة للوَحدة، والموتَ للجِنس[5].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 68.

(2) إلّا ما ورد مِن الاستثناءات في قصص الذين أماتهم الله ثمَّ أحياهم، كبعض قوم موسى ﷺ، والذين (قالَ لَهُمُ اللَّهُ موتوا ثُمَّ أحْياهُمْ)، والذي (أماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ)، وغيرها.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.

(4) الواحدي، التَّفسير البسيط: 20/ 126، والنَّسفي، مدارك التنزيل: 3/ 296، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 283، والقنَّوجي، فتح البيان: 12/ 413.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 397.

والمقصود بالموتة الأولى: السّالفة أو السّابقة، بلا قصدٍ لتعيين ثانيةٍ أو ثالثة[1]، أو قد يدلُّ الوصف بالأولى على أنَّ المَذوقَ موتةٌ ثانيةٌ، فكان كأنَّه قيل: أمّا غير المتَّقين ممَّن كان عاصيًا فيدخل النّار، فيذوق فيها موتة أُخرَى؛ أي: يقاسيها دون أن ينالها[2].

مناسبة ذِكر ﴿ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ في سياق وصف نعيم الجنَّة بعد تقدُّم ذِكرِ قِيلِ الكافرين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾:

المقارنةُ بين الحالَيْن، وبيانُ جزاء الفريقَيْن

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ "إشارةٌ إلى قول المكذِّبين باليوم الآخر: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ٣٥﴾ [الدخان: 35]؛ أي أنَّ أهل الجنَّة قد ذاقوا هذه الموتة الأولى، التي كانوا على إيمانٍ بالحياة والبعث بعدها، فكان هذا الإيمان سببًا في خلاصهم مِن عذاب النّار، كما كان سببًا في هذا النَّعيم الذي هُم فيه، ومذاقُ هذه الموتة عندهم، غيرُ مذاقِها عند مَن يكذِّبون بالبعث؛ حيثُ يجدُ المؤمنون بالبعث أنَّ هذا الموتَ سبيلٌ إلى الحياة الآخرة، وإلى لقاء الله، وإلى ما أعدَّ الله للمؤمنين المحسنين مِن جزاءٍ كريم، على حين يجدُ المكذِّبون باليوم الآخِر أنَّ الموت هو حُكمٌ عليهم بالفناء الأبديِّ، الذي يتحوَّلون بعده إلى ترابٍ في هذا التُّراب، وإنَّه الضَّياعُ الأبديُّ لهم، والفراقُ الذي لا لقاءَ بعده للأهل والولد؛ فهم يُعذَّبون بالموت في الدُّنيا، كما يقول الله ﷻ: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التَّوبة: 55]، وهُم كذلك يعذَّبون بهذا الموت في الآخرة، إذ كان هو الذي انتقل بهم إلى هذا العذاب الجهنَّميِّ الذي يتجرَّعون كؤوسه ألوانًا؛ فهذا الموتُ الذي ذاقه المؤمنون في الدُّنيا، هو سببُ مَسَرّاتهم التي يُسَرّون بها في الجنَّة؛ إذ يذكرونه فيذكرون أنَّه هو الذي أوصلهم إلى هذا النَّعيم، فلولا الموت لَما كان البعث"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 50.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 216.

سرُّ تخصيص أهل الجنَّة دون أهل النّار بعدم الموت رغم مشاركتهم فيه:

خُصَّ المتَّقون بعدم الموت؛ لثبوت الحياة الحقيقيّة لهم

خُصَّ أهل الجنَّة بهذه البشارة رغم أنَّ أهل النّار أيضًا لا يموتون؛ لأنَّ البشارة لم تقع بدوام الحياة فقط، بل بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات، فظهَر الفرق[1].

ولأنَّ النَّفيَ ليس للموتِ بل لذَوقه؛ وأهلُ النّار يذوقونَ الموت لكن لا يموتون، فكأنَّهم - عياذًا بك اللَّهمَّ - أخذوا مِن الموت سكرتَه وعذابَه فذاقوا، ويشهدُ لهذا المعنى قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ [إبراهيم: 17] وإنَّ نفيَ ذوقِ الموت معناهُ الحياة، وأهلُ النّار لا تثبتُ لهم الحياة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤﴾ [طه: 74]، فلا يوصَفُ أهلُ النّار بعدَم الموت إلّا مقرونًا بنفي الحياة كذلك.

نكتة العطف في: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تذكيرٌ بنعمة السَّلامة ممّا ارتبكَ فيه غيرُهم مِن أهل المَلامة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عاطفة[2] الجملةَ بعدَها على قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾؛ لِما بينَهما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَين؛ إذ الجملتانِ اتَّحدَتا في الخبريَّةِ، وبينَهُما مناسبةٌ في اللَّفظِ والمعْنى؛ فأمّا التَّناسُبُ في اللَّفظِ؛ فإنَّ الجملتينِ اشْتركتا في الفعليَّةِ الماضويَّةِ، مع اتِّحادٍ في المسنَدِ إليه وهو الضَّمير الرّاجِعُ إلى الله تعالى، وأمّا التَّناسبُ المعنويُّ؛ فتضمُّنُهما لنِعَم الله تعالى على أهل التَّقوى في الجنَّةِ، وفي هذا تذكيرٌ بنِعْمَةِ السَّلامة ممّا ارتبكَ فيه غيرُهم، وذلك ممّا يُحمَدُ الله تعالى عليه، كما وردَ أنَّ مِن آداب مَن يرى غيرَه في شدَّةٍ أو بأسٍ أن يقول: الحمدُ لله الذي عافاني ممّا هو فيه[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 666.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 137.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الطّور: 26 - 27].

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ من حيث مادَّته وصيغته:

من اتَّقى فأطاع وتجنَّب ما حرَّم؛ وقاهُ الله سبحانه نارَ جهنَّم

الأصل في معنى الوقاية أنَّها تدلُّ على دفع شيءٍ عن شيءٍ بغيره[1]، ومعناه المحوريُّ: حفظٌ مِن الأذى أو الضَّرر باتِّخاذ حاجزٍ دونه[2].

ولمّا كان السِّياق في الحديث عن نعيم المتَّقين؛ ناسبَهُ أن يُعبَّر في ذِكر ثوابهم بالوقاية، فقال سبحانه: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فكان هذا جزاءَ ما اتَّقَوه[3].

فالتَّعبير بقوله: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ - الذي يشترك مع ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في الجذر المعجميِّ نفسه - فيه إشارةٌ إلى أنَّ الجزاء مِن جنس العمل؛ ذلك أنَّهم لمّا حقَّقوا التَّقوى فاتَّقَوا التعرُّض لعقاب الله تعالى، وجعلوا بينَهم وبين عذابِه وقاية؛ لمّا فعلوا ذلك كافأهُم ربُّهم فوَقاهُم عقابَه[4].

ومجيءُ فعلِه ماضيًا فيه دلالةٌ على تحقُّقِ الوقوع، مبالغةً في إكرامهم وشمولِ المنَّة العظيمةِ إيّاهم.

بلاغةُ الالتفات مِن التَّكلُّم في ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ إلى الغيبة في ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾:

التَّنبيهُ والإيقاظ؛ عسى أنْ يحصل للمُعرِضين اتِّعاظ

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ عائدٌ إلى ضمير المتكلِّم في ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ على طريقة الالتفات[5]؛ إذ كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وقيناهم)، لكنَّه التُفِتَ عنه تجديدًا لنشاط السّامع، وإيقاظًا له وتنبيهًا؛ للدَّفعِ إلى الإصغاء إلى ما يحصلُ عليه المتَّقون في مقابل ما ينالهُ العاصون مِن الإهانة والشَّقاء والعذاب الشَّديد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وقى).
(2) محمد حسن محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقى).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 51.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 51.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.

نوع الإضافة ودلالتُها في ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾:

إنَّ عذابًا أُضِيف إلى الجحيم؛ لهو - بحقٍّ - عذابٌ عظيمٌ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ معنويَّة؛ والقصد من هذه الإضافة - بعد تعريف المضاف - المبالغةُ في وصف العذاب؛ فإنَّ عذابًا أُضِيفَ إلى الجحيم لهو عذابٌ شديدٌ أليم!

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾ دون غيره من أسماء النّار:

بيانُ عظيم المِنَّة على أهل الجنَّة

تدورُ معانيَ الجَذْر (جحم) حول شدَّة الحرارة وعِظَمها، مع غِلَظِها في نفسِها، فالجُحْمَة: شدَّةُ تأجُّج النّار، والجاحِم: المكانُ الشَّديدُ الحَرِّ، وكلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ فهي جَحيمٌ، وبه سُمِّيت الجحيم جحيمًا[1].

فمِمّا سَبَقَ يتبيَّنُ أنَّ الجحيمَ تَجْمَعُ أمورًا؛ وهي: شدَّةُ تأجُّج النّار، مع عِظَم الحرارة، وبُعد القعر، وهذا هو الذي وقى اللّهُ تعالى منه عبادَه المتَّقين أهلَ الجنَّة، فما أعظمَها مِن منَّة! وهذا الجحيمُ هو مصير كلِّ كافر أثيمٍ استكبرَ على ربِّه سبحانه، وكذَّبَ رسله ﷺ، فكان جزاؤُه مِن جنس عمله.

نكتة تنكير ﴿فَضْلًا﴾ وتوجيه نصبها:

بيانُ عِظَمِ الظَّفَر بجنّات النَّعيم، والنَّجاةِ مِن عذاب الجحيم

جاء التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَضْلًا﴾ للتَّعظيم؛ فكلُّ ما وصل إليه المتَّقون مِن النَّجاة مِن العذاب، والوقاية مِن الجحيم، والفوز بجنَّة النَّعيم إنَّما حصلَ بتفضُّلٍ مِن الله تعالى عظيم، فلم يدخلوا الجنَّة بعَمَلِهم، بل بمحضِ فضل الله تعالى عليهم.

ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 43]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ

(1) الجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جحم).

ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

[فاطر: 34 - 35].

وأمّا النَّصَب في ﴿فَضْلًا﴾ فيحتمل أن يكون مفعولًا لأجله؛ أي: فَعَل ذلك جلَّ ذكرُه بهم تفضُّلًا منه سبحانه عليهم.

ويحتمل أن يكون مصدرًا مؤكِّدًا لفعله، وما قبله يدلُّ عليه، فكأنَّه قيل: تفضَّلَ الله عليهم بذلك تفضُّلًا، ويحتمل أن يكون منصوبًا بإضمار فعلٍ؛ أي: وأعطاهم فضلًا[1]، وكونه مفعولًا مطلقًا أقربُ؛ لأنَّه مصدرٌ مُلاقٍ لعامله في المعنى؛ أي تفضَّلنا بذلك فضلًا[2].

وفيه إشارة إلى أنَّ الثَّواب إنَّما يحصل تفضُّلًا مِن الله تعالى لا بطريق الاستحقاق؛ لأنَّه تعالى لمّا عدَّد أقسامَ ثواب المتَّقين بيَّن أنَّها بأسرِها إنَّما حصلت على سبيل الفضل والإحسان مِن الله تعالى[3]، ولو أنَّه سبحانه آخَذَهم ولم يُعاملهم بفضله وعفوِه لهلكوا؛ فلذلك بيَّن ﷻ أنَّه فعلَ بهم ذلك لأجل الفضل[4].

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾:

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداء الغاية[5]، وهو بهذه الدَّلالة في هذه الآية يشير إلى أنَّ الفضلَ وأصلَهُ ومصدرَهُ الرَّئيس هو الله ﷻ.

أصلُ كلِّ تفضُّل ومُبتداهُ هو الله جلَّ في عُلاه

ويجوز أن تكون ﴿مِّن﴾ تبعيضيَّة، ويكون المعنى: أنَّ ما قضى الله ﷻ به في أهل الجنَّة؛ مِن أنَّهم لا يذوقون الموت، ولا يتحوَّلون عن هذا النَّعيم الذي هم فيه، إنَّما كان ذلك بعضًا مِن فضل الله

(1) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 581، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 517.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 137.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 665، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 591.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 54.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

تعالى، وطرَفًا مِن إحسانه سبحانه، وجزءًا مِن رحمته ﷻ إلى عباده المؤمنين، وحسبُهم بهذا فوزًا[1]، وفي التَّبعيض معنى ابتداء الغاية أيضًا كما هو معلوم؛ إذ إنَّ في قولنا: (أخذتُ مِن الدَّراهم درهمًا) - وهو للتَّبعيض - معنى الابتداء؛ فقد جعلنا هذا الدِّرهم - الذي هو بعضٌ مِن الدَّراهم - هو ابتداء أخْذِنا.

بلاغة الالتفات إلى خطاب المفرد في ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾:

التَّنبيه والإشارة إلى قيمة الاستجابة للبشارة والنِّذارة

الالتفاتُ إلى خطاب المفرد في قوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾؛ لإيقاظ السّامع وتنبيهه إلى عظيم فضلِ الله تعالى على عباده بإرسال النَّبيِّ ﷺ، فما وصل إليه المتَّقون مِن فضل الله تعالى كان بإيمانهم بالله تعالى، واتِّباعهم للنَّبيِّ ﷺ، وفي هذا مواساةٌ عظيمةٌ للنَّبيِّ ﷺ بعد أن كفرَ به أشرافُ قومه واتَّهموه بالكذب والسِّحر والكهانة، وأنكروا البعث والقيامة، فكأنَّه قيل: إنَّ أتباعكَ سينالهُم الفضلُ من ربِّك الذي تفضَّل بإرسالك رحمةً للعالمين، وإنَّ أعداءك سيُنبَذون في الجحيم، وما لهم مِن ناصرين!

نكتة الإظهار في مقام الإضمار في ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

تشريف مقام النَّبيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ إذ مقتضى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (فضلًا مِنْه)؛ لأنَّه تقدَّم قبلُ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾، وفي الإظهارِ تشريفٌ لمقام النبيِّ ﷺ، وإيماءٌ إلى أنَّ ذلك إكرامٌ لهم؛ لإيمانهم بالنَّبيِّ ﷺ[2].

والمعنى: فضلًا مِن ربِّك المحسنِ إليك بكمال إحسانه إلى أتباعكَ إحسانًا يليق بك[3].

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 13/ 217.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 591.

علَّة الفصل في: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

لا فـوز بعد الفوز بالنَّعيم، والوقايةِ مِن عذاب الجحيم

فُصِل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه مؤكِّد له ومقرِّرٌ لمضمونه، فإنَّ الوقايةَ مِن عذاب الجحيم، والفوزَ بالجنّات والعيون؛ حيث لبس الفاخر مِن السُّندس والإستبرق، والزَّواجُ بالحور العين، وأكْلُ صنوفِ الفاكهة المستلذَّة؛ كلُّ هذا فوزٌ عظيم، بل لا فوزَ أعظمُ منه، "فهو الفوز الذي لا فوزَ بعده، المتناهي في العِظَم"[1].

نكتة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

بيانُ بُعْدِ المنْزِلَةِ ورفعةِ المكانة

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لتمييز المُشار إليه أكملَ تمييز، فكأنَّه حاضرٌ مشاهَدٌ ملموسٌ، وفيه أيضًا تعظيمُ الفَضْلِ ببيان بُعدِ المرتبة[2].

بلاغة القصر بتعريف الجزأين وتوسُّط ضميرِ الفَصْلِ في ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

إفـادةُ معنى الكمالِ في الفوزِ

جاء القصر بتعريف جُزأي الجملةِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ؛ حتَّى كأنَّ الفوز بالجنَّة والنَّعيمَ الموصوفَ هو الفوزُ وحدَهُ، وقد أُتِي بضمير الفصل لتأكيدِ تخصيص الفوز بالفضل المشار إليه؛ وهو قصرٌ لإفادة معنى الكمال، كأنَّه لا فوزَ غيره[3].

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾، ودلالةُ وصفِه بـ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾:

لا فـوزَ كالفوز بـفـضـل الـلـه والـجـنَّـة، فهي أعـظـمُ منحةٍ وأجَلُّ مِنَّة

التَّعريفُ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ للعهد؛ حيثُ إنَّ المقصود هو الظَّفرُ بتلك المكانة العليَّة، والمنازل البهيَّة التي أخبر عنها ربُّ البريَّة سبحانه، والنَّجاةُ من الجحيم والعذاب الأليم؛ واللَّذان وردَ ذِكرُهما في الآيات.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 664.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 320.

ويصحُّ أن يكون لاستغراق الصِّفات على وجهِ المُبالغَةِ؛ أي: أنَّ هذا الفوزَ هو الفوزُ الكاملُ الذي لا تروم النَّفسُ ما بعده.

والفوزُ هو الظَّفر مع حصول السَّلامة، وقد وُصِف بـ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ لأنَّه لا فوز وراءَه؛ إذْ هو خالصٌ مِن جميع المكاره، وهو نيلٌ لكلِّ المطالب[1]، ولم يَدَع جهةً مِن الشَّرف إلّا مَلَأها.

وهذا يدلُّ على أنَّ الفضلَ أعلى مِن درجات الثَّواب المستَحَقِّ؛ لأنَّه تعالى وصَفَهُ بكونهِ فوزًا عظيمًا، وأيضًا فإنَّ الملِك العظيم إذا أعطى الأجيرَ أُجْرَته ثمَّ خلع على إنسانٍ آخرَ؛ فإنَّ تلك الخلعة أعلى مِن إعطاء تلك الأُجرة[2].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

اللِّباس والكساء والحُلَّة:

الحُلَّةُ أخَصُّ من اللِّباس والكساءِ

الفرق بين الثَّلاثة أنَّ اللِّباسَ جُعِل لِما يستُر ما يسوءُ الإنسانَ انكشافُه؛ قال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: 26][3]، وجذر اللِّباس يدلُّ على مخالطةٍ ومُداخلة[4].

والمعنى المحوريُّ: تغطيةٌ بمُداخلةٍ وملازمة[5]؛ فأوثِر لفظُ (اللُّبْس) في قول الله ﷻ: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: 31]؛ لأنَّ ثيابَ أهلِ الجَنَّة منسوجةٌ من رقيقِ الحرير وغليظِه[6]، فالسُّندسُ: هو ما رقَّ من الحرير يُعمَل وجوهًا، والإستبرقُ: هو ما غلُظَ منه يُعمَل بطائنَ[7]، وفي هذا مُداخلةٌ ومخالطةٌ، ولأنَّ ثيابَهم ساترةٌ لسوآتهم.

(1) البروسوي، روح البيان: 8/ 432، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 135.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 3/ 591 - 592، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 66.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/ 312، والراغب، المفردات: (لبس).
(4) ابن فارس، المقاييس: (لبس).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لبس).
(6) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 297.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 48.

أمّا الكِساءُ؛ فالمعنى المحوريُّ لجذرِه هوَ سَتر الشَّيء وتغطيته[1]؛ فيُستعمَلُ ما هو من الجَذر في تغطية الجسم بثوب، واستُعمِلَ في سَترِ العظام باللَّحم؛ قال الله ﷻ: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: 14][2]؛ فجُعِلَ اللَّحمُ كالكِسوةِ لها[3].

ويُقال عندما تُغَطَّى الأرضُ بالنَّبات: اكتسَت الأرضُ بالنَّبات[4]، وقد يكونُ الكِساءُ غيرَ ساترٍ لبعض ما يسوءُ المرأةَ انكشافُه، فممّا قيل في شرح قول رسول الله ﷺ: «ونساءٌ كاسياتٌ عاريات»[5]؛ أي: يسترنَ بعضَ جسَدِهن ويكشفنَ بعضَه إظهارًا لجمالِهنَّ ونحوه[6]؛ فدلَّ هذا على أنَّ ما اكتسَينَ به ساترٌ لبعض البدن وكاشفٌ لِبعض ما لا يَحلُّ لهنَّ أن يكشِفْنَهُ أمامَ مَن لا يَحلُّ لهُ أن يراه.

وأمّا الحُلَّة؛ فجذرُها يدلُّ على فَتح الشَّيء، وهي لا تكون إلّا ثَوبين؛ فلمّا كانا اثنين كانت فيهما فُرجَةٌ[7]، ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الحُلَّةَ أخَصُّ من اللِّباس والكِساء.

الوقاية والحفظ:

الفرقُ بينهما أنَّ جذر الحِفظ يدلُّ على مراعاةِ الشَّيء[8]، ومعناهُ المحوريُّ هوَ حياطةٌ قويَّةٌ ضابطةٌ للشَّيء فلا يَضيعُ ولا يتفلَّت[9].

وأمّا جذر الوقاية؛ فيَدلُّ على دَفعِ شيءٍ عن شيءٍ بغَيْرِه[10]، ومعناه المحوريُّ: حفظٌ من الأذى أو الضَّرر باتِّخاذ حاجزٍ دونَه[11].

الوقاية تدلُّ على دفع شيءٍ عن آخرَ بغَيْرِه، والحفظُ دالٌّ على مراعاة الشَّيء

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كسو).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كسو).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 265.
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كسو).
(5) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2128).
(6) النووي، شرح صحيح مسلم: 14/ 110.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حفظ).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حفظ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وقي).

ولمّا كان السِّياق للمتَّقين، وكانوا قد جعلوا بينهم وبين المعاصي وقايةً وهي الخوفُ من الله ﷻ، فدفعوا أنفسَهم عن المعاصي بالخوف منه ﷻ، وأقبلوا على طاعته والتزموا أوامرَه ﷻ؛ فكانت الطّاعةُ تنهاهُم عن المعاصي كما تَنهَى الصَّلاةُ عن الفحشاء والمنكَر، لمّا كان ذلك؛ قال الله ﷻ: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾؛ أي: جملة المتَّقين في جزاء ما اتَّقَوْه، ﴿عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أي: التي تقدَّم إصلاءُ الأثيم لها[1]، ولمّا كان السِّياقُ للمتَّقين، وكان ربَّما ظُنَّ أنَّ هذا الذي فُعِل بهم حقٌّ لهم لا بدَّ ولا محيد عنه؛ قال الله ﷻ: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ﴾؛ فبيَّن اللهُ أنَّ الأمرَ على غير ذلك، وأنَّه سبحانه لو آخذَهُم ولم يُعاملهُم بفضلِه وعفوِه لهلكوا[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 51.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 54.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"